

القوة الإنجازية في المثل العربي القديم

د. فوزي علي صويلح، جامعة الملك خالد- السعودية، وجامعة إب- اليمن.

ملخص

يعد المثل العربي من أهم المكتسبات الأدبية التي أجمع المؤرخون على صحتها في التراث، بل إنه يعد من أهم عيون النشر العربي، و مصدرًا من المصادر الوثيقة في شواهد العرب على كثير من المسائل العلمية: تتنفس منه المعرفة في منازل التمثيل والحجاج والخبرات والمعارف والتجارب والمواقف والأحداث والأنشطة وغيرها من ظواهر التواصل الإنساني. بهذا التصور: فإن غايتنا من وراء هذا البحث هو الإفادة من إمكانيات المنهج التداولي للكشف عن مصادر (القوة الإنجازية في المثل العربي القديم)؛ إيمانًا منا بأن استعادة التراث وحمله على أسس منهجية حديثة سيريد من حظه لدى القارئ المتجدد في سياق إحياء المكتسب، والتأسيس للمستقبل على أصول الماضي.

الكلمات المفتاحية: القوة، الأفعال الإنجازية، المثل العربي، القصصية، الحجاج.

Abstract

Illocutionary force in the old Arabic proverbs

Proverbs in Arabic are considered one of the most important literary gains all historians agree on their reliability in the heritage. Proverbs are rather considered one of the important aspects of Arabic prose, and a reliable source used by Arabs to provide evidence for many scientific issues. Knowledge borrows proverbs for the sake of formulating similes, argumentation, experience, situations, events, activities, and other human communication activities. Based on this perception, the goal behind this research is to benefit from the tools of pragmatic approaches to detect the “illocutionary force in the old Arabic proverbs”. We believe that the restoring heritage and analyzing it on the basis of modern linguistic methodology will increase its popularity among the modern innovative readers in the context of the old heritage revival and laying a foundation for the future on the basis of the past.

Key words: Force; Speech Acts, Arabic Proverb, Intention, Argumentation.

استئلال:

مع إجلالنا لبعض الجهود النقدية التي قدمها بعض المفكرين والباحثين المعاصرين من المشاركة أو المغاربة في العالم العربي؛ إلا أن التراث العربي لم يأخذ حظه من الدراسات الكافية فما زال يعامل على أنه ملك افتراضي وليس ملكاً حضورياً⁽¹⁾. بهذا المعنى؛ نشعر بإشكالية الصراع بين القديم والجديد على نحو يجعلنا تلقاء مسؤولية تجريب آليات المنهج اللساني التداولي الحديـث لاستكشاف ما يتيسر لنا من مصادر (القوة الإنجازية في المثل العربي). ونتصور أن هذه المشكلة لا يمكن الاقتراب من تعقيدها إلا بافتراض مسبق لما يتأصل بقناعة في ذاكرة الباحث من الفرضيات المحفزة، ونقصد أن البحث يتأسس على فرضية منهجية، مخصصة، يتنازعنا من أطرافها ما ينتج أفق التوقع من أربطة دلالية أو أنساق معرفية منجزة في سياق الاتصال المعرفي الموصول بالحدث الكلامي بين المتخاطبين. وهي تذهب في تصورها للمادة العلمية إلى أن: (للمثل العربي القديم قوة إنجازية، يمكن إدراكها على مستوى الرؤيا والتشكيل النصي). ولا يمكن التوقف عند هذه الفرضية منهجياً باعتبار ما سيكون، ما لم تتوسد في حيثياتها على متواليات مترابطة، وأربطة متوالية من الأسئلة المتجانسة، ونقصد ما يراودنا من قيم المعرفة والآليات الخاصة بالظاهرة اللغوية، والمنهج النقدي، على نحو ما هو بادٍ في الصيغ الآتية: (أين تكمن القوة الإنجازية في المثل العربي القديم؟ وماهي المعايير، أو المبادئ التي أسهمت في كشف ما وراء الأمثال، من القيم اللغوية والمعرفية الأخرى: الفلسفية، والاجتماعية والثقافية، وغيرها؟).

تلك إشارات سنبثها في مقامها؛ طبقاً لمدارات تداولية، تمثل جوهر التحول النوعي في إنتاج المثل العربي، وجررت معالمها في مدارين أساسيين، هما: التمثيل القصدي، الكفاءة الإعلامية.

أولاً : مفهوم القوة في اللغة و الاصطلاح:

1 - مفهوم القوة في لغة العرب:

تحيلنا المعاجم اللغوية في بيان المنطوق اللغوي لمفردة (القوة) وإضاءة معانيها في اللسان العربي إلى ناشئة القرآن وأساليبه، إذ كان بها حفيماً، لاينازعه في كثافة استعمالها مصدر آخر؛ أعزها وصلاً في وعي العرب يتمثل في قوله تعالى: ﴿ وَأَعِدُّوا لَهُمْ

مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ⁽²⁾، إذ بث فيها القرآن الكريم نفحاتٍ خالصة من دلالات الإعداد، وقيم التمكين والتحسين، وما يتصل بكل أمرٍ كريمٍ من معطيات القوة الذهنية والبدنية.

لقد تهيأ لهذه المفردة من أديم الاشتقاق اللغوي عند العرب القيم الآتية: (الشدة، الحجة و البيان، القدرة، الطاقة، العزيمة و الجدية)⁽³⁾، وما تهيأ لمفردة القوة من أسباب القراءة المعجمية في لسان العرب و المنطوق القرآني لا يشذ عن هذه القيم الجوهرية، إذ يجمعها وشاح موحد، يشد بعضه بعضاً بأصرة (التمكين)؛ بوصفها القيمة الجامعة في تمثيل المعاني السابقة.

2 - مفهوم القوة في الوعي الاصطلاحي عند العرب:

نالت (القوة) عناية المفكرين العرب والغرب قديماً وحديثاً، خلاصة ما بلغنا من فلسفة المصطلح يتلخص في ثلاثة معانٍ أساسية، هي: التحكم، والهيمنة، والتأثير. كما ألفينا اللسانيات الحديثة تتخذ منه فعلاً إبداعياً في الدراسات التداولية، إذ غدت (القوة الإنجازية) - حسب جون سيرل - منوآلاً لتمثيل الخطاب اللساني وتحديد أنواعها، وبمقتضاه نصت الآراء على أن الفعل الإنجازي يمثل الوحدة الصغرى للاتصال اللغوي، وأن للقوة دليلاً يسمى دليل القوة الإنجازية؛ يبين لنا نوع الفعل الإنجازي الذي يؤديه المتكلم بنطقه للجملة.⁽⁴⁾

ويتكون هذا الدليل أو المؤشر من خصائص نحوية؛ تأخذ مسارها في نظام بناء الجملة، خبرة أم إنشائية، كالاستفهام، والأمر وشدة طلبه، والنهي وشدته، أو معجمية، أو صوتية، كالنبر و التنغيم في اللغة المنطوقة، أو المكتوبة كعلامات الترقيم. بذلك فإن القوة الإنجازية تعني أسلوب الجملة وطريقة إنجازها بين المتكلم والمخاطب، وما يتعلق بأساليب حمل الكلام بينهما.⁽⁵⁾

وبمقتضى ما تقدم؛ تغدو (القوة) - في تصورنا - خالصة في الطاقة النشطة، التي تتولد في الأشياء الحسية والأجسام المادية حين تهيأ لها أسباب الترابط التكويني والعضوي في أنساقها الظاهرة والمضمرة، بلوازم التنظيم والتحسين والتأثير. وباجتماعها في المصطلح المركب؛ تكتسب (القوة الإنجازية) في ضوء ما استقر في المعاجم اللغوية، وما تنورت به الأفكار الاصطلاحية قيمة تداولية جديدة؛ تخدم البحث وتجري مجراه، إذ تصبح « الطاقة النشطة التي يتولد بمقتضاها الفعل الإنجازي في الظاهرة اللغوية، وتتصل بأسبابها قيم الكفاءة التداولية في المنتج الإبداعي).

أولاً : الأفعال الكلامية (الإنجازية) :speech actes

تعد (نظرية الأفعال الكلامية / الإنجازية) من أهم النظريات التي شهدت تطوراً نامياً في التفكير التداولي نظرية، إذ فتق فصّها الفيلسوف اللغوي المعاصر ج.ل. أوستن J.L.Austin؛، فعدت - بهذا المسمى - نظرية مخصصة تتجاوزها الآراء و طورها من بعده تلميذه ج. سيرل Searle، وتستمد قيمتها الوظيفية في اللسانيات التداولية من دلالتها (الاستعمال اللغوي)، وما يتحصل بين طرفي الخطاب: المرسل والمستقبل في مساحة التواصل الإنساني، بما يجعلها مختصة دلاليًا بالمضامين، والمقاصد التواصلية، على أن مفهوم الفعل الكلامي speech Act في النظرية التداولية يعني كل ما ينهض من الملفوظات على نظام شكلي دلالي، إنجازي تأثيري. كما يعني « التصرف الإرادي الذي ينجزه الإنسان بالكلام»⁽⁶⁾، طبقاً لمستويات الإنشاء في التفكير البلاغي عند العرب بمساعدة بعض الشروط الظرفية الأخرى، نحو: الأمر، والنهي، و الوعد، والسؤال، والتعيين، والإقالة، والتعزية، والتهنئة، بوصفها أفعالاً كلامية إنجازية.⁽⁷⁾ على أن قيمة المفهوم خالصة في ارتباط (الفعل الإنجازي) ب(الحدث)، باعتبار أن «الفعل هو كل حدث حاصل بواسطة الكائن الإنساني»⁽⁸⁾. ولا تكمن خصوصيته في إبراز منطوق لغوي ما فقط، بل في إنجاز حدث اجتماعي معين⁽⁹⁾، أي إنه يجري ضمن شبكة مخصصة من الوقائع والأحداث، والعلاقات الإنسانية، والنظر إليها يجري في ضوء علاقات الحدث بالواقع.

وبالنظر في مستويات البحث ومظاهر التشكل النصي لهذه الأفعال، ألفينا بحوث أوستن قد صنفت جميع الأفعال الكلامية بمقتضى دلالتها إلى خمس فئات كبرى هي⁽¹⁰⁾: أفعال الأحكام verbdictives، أفعال القرارات exerctive، أفعال التعهد والوعد commissives، أفعال السلوك behabitves، أفعال البيان والإيضاح expositives.

ولم يتحدد كمال هذا التمايز لدى رواد المنهج التداولي عند هذا الحد، إذ تسنى لهم من التفكير التداولي خلوصها في أربع صور أخرى، منها ثلاث اقترحها جون أوستن John.Austin و الرابع فعل الحجاج اجتهد فيه اللغوي الفرنسي أرفالد ديكرود (O.DUCROT)، فبدت على النحو الآتي⁽¹¹⁾: الفعل اللفظي Lecutionary act، الفعل الإنجازي Illocutionary act، الفعل التأثيري Plocutionary act، الفعل الحجاجي. وكلها أفعال تجري في مساحة مشتركة من القيم والعلاقات الإنسانية، وما له تعلق مخصوص بالإنسان وأحواله، من الأفعال والنشاط والصفات وغيرها.⁽¹²⁾

وبمقتضى ما تقدم: يمكن القول: إن (القوة الإنجازية) تعد من أهم ثمرات

الأفعال القولية، باعتبار الحدث المنجز في تصورات الفعل الإنجازي، وارتباطها السياقي بالمؤثرات المعرفية التي يحتكم إليها واعي (المتكلم / المؤلف) في إنتاج الخطاب. ومن ثم؛ فإن ما يتحصل من وراء الأحداث و الوقائع في ذاكرة المثل العربي القديم يعتمد على حدث الإنجاز اللغوي والأفعال الكلامية التي بدت لنا خالصة في متواليات ثلاثية، من الأفعال (القصديّة)، و(الإعلامية)، و(الحجاجية). وهي في التكوين المنهجي للأفعال الكلامية تمثل حلقات منضودة في التواصل بين المتخاطبين، إذ يستجمع من خلالها المتكلم طائفة الأفكار والمعلومات اللازمة، وتخزينها في ذاكرة الأمثال، وهي في صورتها التداولية تعكس الركائز والمقومات الفعلية التي يستند إليها خروج الكلام من صورته النظرية إلى صورة الحدث المنجز. وتتجلى في المستويات الآتية:

أولاً: الاستدلال القصدي Intentionality:

لعل من كفاءة الكلام عموماً وجوده المنظوم خاصة، أنه لا يكتسب خصوصيته الإنجازية ولا يرتقي إلى منزلة الخطاب ما لم يجرّ على منوال جلي، يعبر عن مقاصد معينة، أويتضمن بعض الأغراض التي تحقق له التواصل بين المتكلم والسامع، فضلاً عن جلال الدور الوظيفي الذي يحاول المؤلف إنجازه، بما هو عليه من أمر جامع، يمد النص بالفاعلية والحيوية التي يقتضيهما مقام التواصل. والتسليم بهذا المعطى يعني أن « كل كلام ينطوي على قصدٍ، أو يعبر عن قصدٍ، تصوغه بالأحرى مقاصد متكلميه وأغراضهم»⁽¹³⁾. وهي الاستحقاقات التي ينشدها المتكلم من وراء تكلمه، إذ « إنَّ النَّصَّ ليس بنيةً عشوائية، وإنَّما هو عملٌ، مقصودٌ به أن يكون متناسقاً ومترابطاً لكي يحقق هدفاً معيناً، وبمعنى آخر هو عمل مخطط يستهدف به تحقيق غاية بعينها»⁽¹⁴⁾. وهي الغاية التي ينتظم لأجلها النص أو الخطاب، وصورها مخصصة بالتشجيع و المصادقة والتثبيط والوعد والوعيد، والتمنى، والترجى، والفخر، والتحدى، والتحضيض، والاستخفاف، والتحقير، والتعظيم والإخبار، وغيرها من الغايات التي يحق قهراً النص⁽¹⁵⁾. وإذا فقد هذا الشرط؛ فإنه يظل في منطقة رمادية، لا تمد ذراعها للواقع بصلة. وإذا فقد هذه الأهلية؛ فليس للسامع من ورائه مقصد، ولا للمتلقى به حاجة.

بهذا التصور القصدي نالت (الأمثال العربية القديمة) حظاً ممّا ذكروا به في الخطاب الأدبي، إذ استجمعت في ذاكرتها النصية طائفة من القيم والعلاقات الإنسانية، التي يستند إليها منطوق المثل في معايرة الأحداث، وتقدير الأوضاع والظروف المتشابهة؛ طبقاً لما يتنزل بين (الواقع) و(المتخيل الذهني)، أو(الثابت) و(المتحول) من المواقف، والرؤى بين المتخاطبين، اعتماداً على ما يسمح به فعل الاقتضاء، الذي هو بالأولى فعل

منطوقه النصي على فضاءات دلالية، ومسارات تداولية تحرر مدلوله الواقعي من ربكة التقريرية والمباشرة وسلطان المعيارية في التخاطب إلى فعل إنجازي قصدي؛ يتحول بمعطيات الأحداث، وما يسندها في الواقع من ضروب الخبر والإنشاء إلى دوال قولية، تتعدد فيما عوالم متشابكة من الثنائيات المتماثلة، والمتضادة، كما يستحيل بأسباب التداولية والأفعال الإنجازية إلى ضرب من التحوّل الاجتماعي الخلاق عبر قنطرة (المعروف)، باعتبار أن صنائع المعروف تهرئ المجتمع لدرء المفاسد، والتخلص من صراع يفضي إلى السوء.

وبالنظر في منطوق الأمثال وتأمل سياقاتها في ضوء ما تقدم من أفكار لاجرم يسلمنا إلى أبنية ذات سمات تداولية براجماتية خالصة، تتجاوز المحسوس في حركة تبادلية صوب المعاني؛ فتتكشف من ورائها تجليات المخزون الذهني والكفاءة الإنجازية للأفعال القصدية. ومن ذلك قولهم: «أقبلوا ذوي الهيئات عثراتهم» 433/ 2، إذ يتضمن المثل رؤية إنسانية جديرة بالنظر ويعكس فلسفة عميقة تستحق التأمل من حيث التدفق التلقائي للأحاسيس والمشاعر الإنسانية؛ بوصفها مؤشرات ذهنية تضبط العلاقة بين (الذات) المتلفظة، و(الأخر) المستقبل في سياق التماس العذر وحسن النوايا وإرساء المبدأ العربي الإسلامي، الذي يتمثل العذر في صورته الإيجابية بمنطوق الفعل القصدي: (التمس لأخيك عذراً)، كما يستقيم الأمر ويزداد قيمة حينما يتعلق بذوي الهيئات من ذوي المروءات، أو كما يسميهم الجاحظ بذوي الأقدار.⁽¹⁷⁾

وهذا الفعل الإنجازي الذي ينشط في الوسط الاجتماعي بين الناس يكتسب قيمته الوظيفية من الغاية التي ينشدها المتكلم، وهي كامنة هنا في تعميق الشعور وإحداث التحول نحو العطاء بين الطرفين؛ كي تستقيم الحياة ويسمو التعامل بين الشعوب.

ويحيلنا قولهم: « أكثر مصارع العقول تحت بروق المطامع » 3/ 50. إلى ضربٍ قويم في إنجاز المقاصد، إذ يتجسد الحدث الكلامي في صورة إنشائية من النهي عن تمثيل الطمع. و في ذلك منفذ لهذا البعد المقاصدي عبر آفاق التمثيل الذهني لصراع العقول مع الأطماع المادية، يخلص فيه (المتكلم / المخاطب) إلى نتيجة فلسفية؛ تعكس قدرة الأطماع المادية على غزو العقول البشرية و إفساد الرؤية المثالية للكينونة البشرية في تصور الحياة. و مع ذلك فإن المثل يبوح من وراء اللغة بضرورة المجاوزة والتحرر من القيود المادية، في إشارة إلى تحرير العقول من رق المطامع و اتباع الشهوات على وجه من الترغيب و الحث على تحقيق التوازن في الرغبات و الاعتدال في المطالب ونبيل المعاني والتحرر من الأطماع التي تطمس نور العقول وتفسد ثمرتها الفكرية.

و من ثمّ، فإن المتصور الذهني للحدث المنجز، أو إنجاز الحدث بمقتضى التصور الذهني قد جعل من «الخطأ زاد العجول» 1/373؛ فصار بهذه الصورة مؤشراً ناجعاً على التعجل في صورته السالبة ولا سيما الاستعجال في الحكم، أو تقييم التجارب بمنطق العاطفة دون جمع القرائن؛ فجرت مقاليد القصدية بمقتضى ما يتنزل في الوعي عبر آليات السلامة، بمنطق يقول: (لا تكن عجولاً فتخطئ أو لا تؤخذ المطالب بالعجل أو لا تبلغ المعالي بالعجل)؛ فكلها مما يتصوره الذهن في سياق الحث على التأمل والتروي في إنجاز الأعمال واتخاذ القرارات المناسبة في شؤون الحياة. وبهذا التمثل القصدي يأخذ العجل والخطأ في ثنائية جدلية من التصور الفلسفي للمعالي والمنظور النفسي للسلوك البشري، فيغدو نتيجة حكمية ومؤشراً نفسياً يقتزن بالفعل الإنساني في سياق التصور المعرفي والممارسات الإجرائية واتخاذ القرارات اللازمة في شؤون الحياة المختلفة. وبهذه المعطيات نجد أن المثل يوقظ في المتلقي مشاعر السلامة وحرص على ضبط السلوك في الأقوال والأفعال بما يحقق الحلم والصبر والطمأنينة. كما أن له من الخلقة الفطرية ضلعاً مستبيناً، إذ قال تعالى: ﴿خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ سَأْرِيكُمْ آيَاتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ﴾⁽¹⁸⁾ وقال عز وجل: ﴿وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا﴾⁽¹⁹⁾؛ فكلها قيم تداولية مسكونة بإشارات خاصة نحو البطالة وفراغ الفكر من التحكم والسيطرة على النفس والجوارح.

معنى ذلك أن التمتع الأمثال ببنيتها وامتونها النصية يجري عليها نسيج حي من الروابط والعناصر اللغوية، على نحو ما هو مائل في الخطاطة السابقة من تشكيلات الوعي التداولي للأفعال الكلامية. أي أنها اكتسبت من هذه القيم خصائص جوهرية في التمثيل القصدي كالذي يتراءى فيها من قيم النهي والتحذير والتمني والإرشاد والسخرية والترغيب، بوصفها مصادر القوة الإنجازية في الأنموذج السابق. ومصدر هذه القوة يتمثل في منطوق المثل، إذ صار (الخطأ زاد العجول) في إشارة سالبة إلى الحركات اللاهثة دون دراية والنشاط غير المحسوب، وكل ما له أثر سلبي في التصرف اللامسؤول، الذي يخطئ الهدف المرجو وما يتصل بانعدام الحكمة، وغياب مقاييس الضبط السلوكي عند الآخر.

وعبر مسارب التخيل والنشاط العقلي يؤول النهي في قول العرب: (لا تدخل بين العصا ولحائها) إلى حدث منجز في الأفعال القصدية، غايته في النشاط الحسي الحيلولة دون الفاعلية والنمو بين (العصا) و(اللحا)، بما يقتضي الفصل العضوي بين العنصرين؛ فيجعل فصلهما عن الآخر حالة من الفساد بين الأصدقاء والأقارب، وتبدو من الصور القميئة في ممارسة السلوك الفاسد انتهاك العلاقة المشروعة بمن

تربطه منهم أواصر الانسجام والتلازم العضوي في الطباع والمصالح المشتركة.

والحال نفسه يأخذ مساحة في التصور الإنجازي للفعل القصدي المنوط بالضلال والتهيه حين يصير (الهوى شريك العمى)، فيتحول من شريك السعادة والنشوة إلى طريق الضلالة والتهيه؛ فتتغلق الذات على نفسها وتتغشاها حالة من الانكفاء والنكوص، وحينها لاتملك القدرة على تمييز مساحة النور التي ينبغي أن تسلكه. و من هذا المنطلق؛ يلقي المجاز المرسل غلته و يبسط علاقته السببية في قولهم: (إذا اتخذتم عند رجل يداً فانسوها) إذ يكسب اليد قوة الإنجاز في الفعل القصدي، وتوهب له القدرة على العطاء، وتحسب له أسباب الفضل والتَّعْمَة من جهة اليد والنسيان.

وبمقاييس العثرة، وتقدير المواجه في الوعي المعرفي عند العرب ينشأ الألم بين القدم و اللسان، بل تصبح: (عثرة القدم أسلم من عثرة اللسان)؛ فيتحدد المنطوق الإنجازي للفعل الكلامي للمثل عبر وسائط التحول بين المنطوق والمفهوم المتضمن، ونقصد أن تحول المثل من الخبرية الجلية إلى صيغة إنشائية، بما هو محمول عليه من دلالة (التحذير) إلى القول : بأن من يعصم لسانه عن الزلل خير له من إرسالها في أعراض الناس؛ أي أن عثرة القدم تنحصر على الذات في مساحتها المكانية أما عثرة اللسان فقد لا يسلم منها (الأخر)، أو تكون سبباً في تعثر مجتمع أو فساد نظام اجتماعي برمته. وأبرز ما يصادف هذا المنطوق التحذيري من الإنشاء و فعله الإنجازي قول أحد الصالحين: «الزم الصمت يُكسبك صفو المحبة. ويأمنك سوء المغبة. ويلبسك ثوب الوقار، ويكفك مؤنة الاعتذار»، وقيل: «الصمت آية الفضل، وثمره العقل، وزينة العلم، وعون الحلم؛ فالزمه تلزمك السلامة.»⁽²⁰⁾

ثانياً: الكفاءة الإعلامية Informatively:

تحدد (الإعلامية) في المنظور النصي و اللسانيات التداولية من خلال مجموعة من الركائز و المقومات اللغوية التي ينمو بها الخطاب في سياق الاتصال والتواصل الإنساني بين المتكلم و السامع. وتتحصل بين المتخاطبين في سياق التمثيل الذهني لمعطيات (الحدث) و(الواقع)، بمنطق يستجيب في تمثله الإجرائي لقيم الإيحاء، الذي يتحصل من وراء المجاز والصورة البيانية؛ بوصفها المقومات الخاصة لنمو الخطاب وفهمه. ذلك أن الخصائص الجوهرية لا تتحصل في تشكيل الخطاب من الوحدات الصرفية، أو الرموز والقواعد النحوية فحسب، وإنما يقوم على نظام إعلامي فعّال، يتجاوز إجراءات التفكير الموضوعي إلى «ما وراء الانتفاع بمنطوق النص»⁽²¹⁾،

باعتبار أن الإعلامية في الدراسات النصية والتداولية تندرج ضمن تمثيل لغوي، يتخذ شكل المدى الذي تتكون فيه العناصر والمعلومات داخل النص بمقتضى السياقات التي جرت عليها الأعراف و التقاليد التعبيرية⁽²²⁾؛ إذ لا ينظر إلى المصطلح من حيث دلالاته على المعلومات، التي تشكل محتوى الاتصال فحسب، بل من حيث دلالاته بالأحرى على ناحية الجودة و التنوع الذي توصف به المعلومات في بعض المواقف.⁽²³⁾ وأعز ما يمكن تصويره في الوظيفة (الإعلامية) للنصوص و الخطابات من المنظور التداولي، اعتمادها على قانون التحول والصبورة في الأشياء و نقصد المجاوزة في العبارة المباشرة و الانزياح من الصورة النمطية في القواعد اللغوية، إلى القواعد اللانمطية، التي تخرق قانون الكلام، فتنقله من مستوى الوظيفة الإخبارية إلى الوظيفة الإيحائية.

ومن ثم فإن الاشتغال بالأفعال الإنجازية واعتماد الإعلامية مدخلاً في تفحصها يعكس أفكار البحث ومسارته المنهجية؛ إذ تغدو قيمة جوهرية لإنتاج الطاقة الدلالية في الأمثال، كما يصبح تكوينها النصي خطاباً تتعانق فيه العلاقات بالروابط وتتقارب فيها الأنساق اللغوية بالمتواليات المترابطة.

ومن هذا المنطلق؛ «فإن المحمول الدلالي لمفهوم (الإعلامية) لا يتقيد بالتعبير في تعامله مع المستوى المباشر للغة فحسب، وإنما يتحول به إلى وظيفة إنجازية في الخطاب؛ الأمر الذي أدى إلى التسليم بالغموض في إعلامية الخطاب»⁽²⁴⁾؛ بل إنه كلما جاء الكلام مخالفاً للمألوف، كان له وقعه الخاص و قيمته الوظيفية في القوة الإنجازية بين المتخاطبين، بل إنه يرفع مستوى التخاطب و يزيد من درجته الإعلامية، ومن ثم فإن درجة الكفاءة الإعلامية تتأثر بقدر البعد أو القرب من الاحتمالات المتوقعة.

إن المتصور الإنجازي للأفعال الإعلامية – طبقاً لما تقدم - يحيلنا في مادة الخطاب إلى معارج مخصوصة من بنيات الأمثال العربية، تستجيب لمقوماتها النصية والخطابية ومن ضمنها البعد الإبستمولوجي المعرفي، وقدرتها التداولية على تشكيل الوعي الأنطولوجي للمتكلم والمخاطب معاً. وينشأ ذلك في إطار شبكة علائقية متضافرة، تنطلق من الواقع وتتطابق معه في مقاصدها الكلامية بل تزداد قوة إلى قوتها. كل ذلك يضعها في مستوى له قيمته في التمثيل و الإخبار والتصوير، إذ تراكب في سياق تكوين تشبيهي قوامه المشابهة أو تغذيها أنساق مجازية بامتدادات خيالية و تمدها ببني ذهنية لها من صبغة التخيل الفني طاقة إيحائية مكثفة و نشاط استعاري أو كنائي مؤثر. وهي تتمثل في صيغ كثيرة من أقوال العرب وتشغل في وعينا مساحة لا بأس بها من التفكير التداولي على النحو الذي يتراءى في النماذج الآتية:

(أ)

- كالفابض على المــــــــــــــــاء 3/30 .
- كالمستغيث من الرمضاء بالنار 30/3 .
- كالجراد لا يبقي ولا يــــنذر 51/3 .
- كالسيل من تحت الدمن 48/3 .

(ب)

- دَمْعَةٌ مِنْ عَوْرَاءٍ غَنِيْمَةٌ بَارِدَةٌ 410/1 .
- الليل أعــــــــــــــــــــــــــــــــور 254/3 .
- أظلم من الشيبــــــــــــــــــــــــــــــــب 263/2 .
- شرٌّ أهرذا نــــــــــــــــــــــــــــــــاب 148/2 .

(ج)

- وقع القوم في سلى جمل 352/1 (25)
- وافق شئُ طبقةــــــــــــــــــــــــــــــــة
- رجع بخُفــــــــــــــــــــــــــــــــي حنين 37/2
- إن الحديد بالحديد يفلح 18/1

إن هذا التوزيع النصي، أوالتصنيف الذي قمنا به لمعالجة الأمثال يضعها - مبدئياً - في مستوى متساوق من درجات الكفاءة الإعلامية، التي نشغل بها، إذ تجاذبتها أربعة مدارات، يعبر كل مدار عن درجة ومستوى مخصوص من درجات هذه الكفاءة وخاصياتها. ذلك أن درجات الخفاء والتجلي في مستويات الانتظام البنائي والتداولي لقيم الإيحاء والتقريرية أو التجاوز و المفارقة ومعطيات الانزياح الأسلوبي التي تحملها يتنزل في مقامات سياقية وأوعية فنية بلاغية؛ تشكل في مجملها منظومة كلامية متعاضدة من قيم التشبيه الضمني، وهذا ما يعيننا من وراء المقاربة التداولية. فقد ألفينا المجموعة (أ) تجري فيها القيم التعبيرية بمنطق المشابهة؛ ويعكس مثلها في المقام الحسي و انتظامها في الذهن صورة جذلى معقودة بصفائر الصورة التشبيهية؛ الأمر الذي جعل منها مصدراً لنشاط حسي عقلي تلتقط فيه (الذات) المتكلمة صورة المشابهات الغائبة، وتجربها بجامع ذهني عميق على مقاليد المشبهات به الحاضرة، وبين الحضور و الغياب تتحصل المقاصد الإعلامية و يتحقق المنجز الكلامي في سياقات المثل، و من ذلك قول العرب :

ما تنزلت في واديه و ما تنورت به الأذهان من لواعج القول في الأفعال الإعلامية، فقد اختصت البنيات التركيبية في منازل مرموقة ودرجات عالية من الكفاءة الإعلامية، لانتوقف عند مستوى التشبيه فحسب، بل تأخذ في مخيال الذات المتلفظة بعداً أعمق في مستوى التمثيل الذهني، إذ تسنده قوة المتخيل والمرجع الحي في الواقع، بما يكسبه شرفاً ونبلاً وحسناً بديعاً في تمثيل القيم الإنسانية.

ومن لطائف القول في تمثيل الصورة الإعلامية للأفعال الإنجازية، كما ورد في المجموعة (ب) اتصال منطوقها الاستعاري بأنساقها التمثيلية، وهذا التوافق بين المظهرين قد نقل لنا صورة حركية رائعة، تنقلب فيها الأبصار، إذ انحدرت الدمعة السائلة في تصور المتلفظ من عين عوراء، تمثيلاً مثيراً لموفور الوجدان وخصوصية الوعي النفسي الأليم في لحظات البوح الإنساني، إذ انحدرت من حالة الانطفاء إلى حالة النور بمعطيات الغنيمة الباردة، وهي قيمة إعلامية تعكس المنجز الاتصالي في تصوير الحدث الكلامي وما يتصل به في الوعي الإدراكي من لحظات الصفاء والاستقرار النفسي؛ إذ تتحول الدمعة النازلة - في ضرب المثل - من عين عوراء إلى صورة مغايرة لما هو ساكن في الوعي الاجتماعي، فالبخيل يتموضع في موقع العين العوراء لانطفاء صورة الكرم وشحة اليد في العطاء. الأمر الذي يؤول في تمثل الأفعال الإنجازية إلى قطيعة بينه وبين المجتمع وتنعدم صفات الوصل في سياق التكافل الاجتماعي والتواصل الإنساني.

ويكتسب المنطوق المجازي في قولهم: (أظلم من الشيب) و (الليل أعور) خصائص جوهرية من المدرك الحسي، تنزل في التمثيل الذهني على سبيل التشخيص الاستعاري للظواهر الطبيعية، فتلوذ في تلازمها الاستعاري للأفعال الإنجازية بماهيات آدمية. انطلاقاً من هيئة التموضع والموالة المتناظرة في الواقع بين صورة الرجل الأعور و صورة الرجل الظالم، في إشارة زمنية إلى حالة الغياب ولحظات الانسلاخ وحجب الرؤية التي ينتج الليل سوادها. فالشيب يغزو رؤوس الشباب ظلماً ويتموضع متسللاً في خصلات شعورهم اليافعة، فينتشر في آفاق العمر قسراً؛ فتبرز به صورة الزمن الضائع بين التخبط وحالة التيه، اللتين يتلازمان لدى الذات في نشاطها الحسي من وراء الظلام، بما ينعكس عليها نفسياً من ظلم الشيب وظلماته.

من هذا المنطلق؛ تطالعنا في المجموعة (ج) لطائف بديعة ومشخصات بيانية إنجازية من الأفعال الإعلامية التي استجمعت في الحدث المنجز بين المتصور الاستعاري والكنائي و المحسنات البديعية، إذ يجمعها و شاح موحد، تنتظم فيه السمات وتتوحد فيها الرؤية الإبداعية لمناشط الحياة الإنسانية في تمثيلها الواقعي وتمثيلها الذهني؛ فيرتفع مستوى التأمل والتأول في المجموعة (ج) بارتفاع درجة الكفاءة الإعلامية، على

النحو الذي يتنزل في محراب النماذج الآتية :

- وافق شن طبقةــــة.
- رجع بخفي حنــــين.
- إن الحديد بالحديد يفلح.
- وقع القوم في سلى جمل.

فتلك إحالات رمزية تمدنا بوعي لازب في محراب الحياة، وما يستقيم يستنير به الفكر العربي ويتسع في وعي العرب لتحويلات مخصوصة في حياتهم بدلالات اجتماعية ونفسية متنوعة؛ يستحيل فيها (شن) بمقياس الرجولة والبعولة، وتؤول صاحبته (طبقة) المعبر عنها بدلالة الاسم العلم المؤنث لا الصفة بمعيار الأنوثة والتبعل، والأمومة الباذخة إلى معادل رمزي للكفاءة بصورتها المادية والعقلية، وهي التي يتمتع بها الطرفان، ونقصد(شن) و (طبقة). وبهذه الكفاءة تتحصل مقومات الانسجام والتلاؤم في المواصفات المشتركة على المستوى الاجتماعي و الانطولوجي والنفسي. على نحو يرسم بمقتضاه الحالة الاجتماعية للواقع العربي لتستوعب الحركة الذهنية في مساحة الرؤيا الإبداعية بكل تناقضاتها وتوافقاتها، ذلك أن القيمة الرمزية والوظيفة الإنجازية من وراء الرموز إليه يخلق بعداً جالياً في ناشئة الوعي الإنساني ويفرز لازمة الذكرى الواصلة بين طرفي العلاقة؛ رغبة في تحقيق الاتصال النصي بين الأشياء بدلالاتها المادية والمعنوية. وبهذه الصيغة تغدو الصورة الرمزية في قولهم: (رجع بخفي حنين) بطابعها الكنائى المؤشر نحو طبيعة النشاط الخائب من أهم المنطلقات الإعلامية في التواصل بين المتخاطبين، إذ يتحول (حنين) مع حُفْيِه في الذاكرة العربية إلى صورة ضامرة، يحكمها الغياب في مقاصد باذخة بين الخائبين أو الرجال الخاسرين. واستنطاق الحديد بلازمة الفلاح في قولهم: (إن الحديد بالحديد يفلح) يعكس قدرة المتخيل الذهني للمتكلم على استلهاام المعرفة بأفاقها المصورة التي تتجاوز الرؤية في وضع الحدود و التعريفات. ومعناه أن القوة و الكفاءة بين الأصناف المتناظرة يقتضي البحث عن الفردوس المفقود والانعقاد من القيود الاجتماعية في رحاب الطبيعة بوصفها الملاذ الآمن والحقل المعرفي التي يتخلق من رحمها مقاييس المعرفة بالوجود باعتبار أن «الفنان هو امتداد خالص و نقي إلى أبعد درجة ممكنة للطبيعة.»⁽²⁶⁾ لأنه «صار من خلق طاقتين: طاقة الطبيعة التي أنبتت المادة، وطاقة الفن التي عبأتها بالحركة والإشعاع»⁽²⁷⁾ على نحو ما نرى في قولهم:

- إن الحديد بالحديد يفلح.

- وقع القوم في سلى جمل.

- وخز اللسان كوخز السنان.

فثمة ما يؤشر وفق ما نصت عليه الأمثال السابقة نحو الخصوصية والفاعلية التي يهبها البعد الرمزي للعناصر الحسية، فما يتجلى في الرؤية المتبصرة، يشف عن تلازم واقتران نضيد بين المتناظرات من الأضداد، كالذي يطالعنا بين العناصر السابقة مثل: (الحديد يفلح) أو ما اتصلت به الأشياء المحسوسة مثل: (شن وطبقة، حنين وخفيه، الحديد بالحديد ، الجمل والسلى)، فهي في مجملها تمثل إحالات ذهنية؛ مما يتشكل في خارطة القيم والعلاقات الإنسانية، بمقتضى السيرورة و التداول الثقافي بين العصور، وفي ذلك ما يعكس قدرة الخطاب التداولي في الأمثال العربية على إجلاء خصائص الوعي الإدراكي الذي يترىص بالوثائق المعرفية في جيوب الذاكرة العربية ويحقق القوة الإنجازية، الذي يترقىها في سياق الكشف والمعالجة التداولية، وما يتلازم في الوعي الإنساني من قيم الحدث الكلامي المنجز.

الخاتمة والنتائج:

لعل ما تناصرت له المقاربة التداولية، واجتمعت في سياق الكشف عن مصادر (القوة الإنجازية في المثل العربي القديم) يسلمنا إلى النتائج الآتية: أولاً: انطلاقاً من مجمل التصورات المفهومية لطبيعة المصطلح المركب يمكن القول بأن: القوة الإنجازية هي الطاقة النشطة التي يتولد بمقتضاها الفعل الإنجازي في الظاهرة اللغوية و تتحصل بأسبابها قيم الكفاءة التداولية في الخطاب اللساني على وجه من الإقناع والإمتاع. و بقياس أسس المعرفة العلمية التي استقامت عليها الأمثال في ضوء التداولية؛ فإن المثل العربي يعكس تصوراً جديداً و رؤية متطورة لقيم المعنى والمبنى. وعلّة هذا التطور – كما نتصور أن المعنى ليس شيئاً متأصلاً في منطوق المثل وحده، ولا يرتبط بالمتكلم وحده، ولا السامع وحده، وإنما يتمثل في تداول الأمثال بين المتكلم والسامع في سياق محدد (مادي، اجتماعي، لغوي) وصولاً إلى المعنى الكامن في كل مثل.

ثانياً: تتحدد مصادر القوة الإنجازية في الأمثال العربية القديمة بمقتضى ما يتولد عنها من مصادر الطاقة الإنجازية التي تتولد في كل مثل عربي، وقد ألفينا معالمها بادية من خلال الأغراض والوظائف التي ازدهرت بها ، وهي المعايير والجوانب التي اعتمدها البحث في مدارين أساسيين هما: (التمثيل القصدي ، الكفاءة الإعلامية).

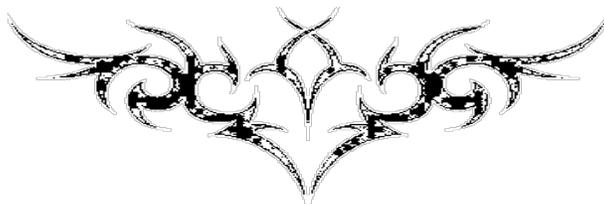
فالأفعال الكلامية (الإنجازية) استجابت لها الأمثال العربية في ظروف

استعمالها، ومقاصدها وطبيعتها تشكلها لهذا المنظور.
ثالثاً: إن حالة المغايرة في البنيات المتقابلة للنماذج السابقة بين الطرفين، واتفاقها على مستوى الفكرة (الواحدة يعطي مؤشراً نافذاً نحو قدرة لأمثال العربية على استيعاب طبيعة البناء الفكري و الثقافي واللغوي مع الفوارق على مستوى النظم والبعد الصياعي.

هوامش البحث:

- (1) ينظر: المسدي، د.عبد السلام، التفكير اللساني في الحضارة العربية، الدار العربية للكتاب، طرابلس، ليبيا، ط 2، بيروت، 1986م، ص: 9.
- (2) سورة الأنفال، الآية (60).
- (3) ينظر: الراغب الأصفهاني، مفردات ألفاظ القرآن، مادة قوا، ابن منظور، لسان العرب، مادة (قوا)، السمين الحلبي، 1996م، عمدة الحفاظ في تفسير أشرف الألفاظ، 3/358 - 359.
- (4) ينظر: العبد، د. محمد، تعديل القوة الإنجازية، دراسة في التحليل التداولي للخطاب، 2004ص: 13.
- (5) ينظر: العبد، د. محمد، تعديل القوة الإنجازية، دراسة في التحليل التداولي للخطاب، 2004ص: 13.
- (6) ينظر: صحراوي، مسعود، التداولية عند العلماء العرب (دراسة تداولية لظاهرة الأفعال الكلامية في التراث اللساني العربي، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، ط 1، 2005م، ص: 10.
- (7) ينظر: صحراوي، مسعود، الأفعال الكلامية عند الأصوليين، مجلة الدراسات اللغوية، مركز الفيصل للدراسات والبحوث الإسلامية، مج 6، ع 2، ربيع الآخر - جمادى الآخرة 1425هـ، يوليو - سبتمبر 2004م، ص: 199.
- (8) فان دايك، توين، النص والسياق، ص: 228.
- (9) ينظر: فان دايك، توين، علم لغة النص مدخل متداخل الاختصاصات)، ص: 118.
- (10) ينظر: نحلة، د.محمود، آفاق جديـــــدة في البحث اللغوي المعاصر، ص: 46.
- (11) ينظر: المرجع نفسه، ص: 45.
- (12) ينظر: العبد، د. محمد، النص والخطاب والاتصال، ص: 285.
- (13) الحميري، د.عبد الواسع، آفاق الكلام وتكلم النص، مجد المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، ط 1، 1431هـ 2010م، ص: 294.
- (14) عوض، يوسف نور، نظرية النقد الأدبي الحديث، دار الأمين، القاهرة، ط 1، 1414هـ، 1994م، ص: 102.
- (15) حسّان، تَمّام، اللغة العربية معناها ومبناها، دار الثقافة، الدار البيضاء ط3، 1994م،

- ص: 189، 364.
- (16) سنثبت موضع المثل لأول مرة في المصدر المخصوص بالمادة وهو مجمع الأمثال للميداني، ثم نكتفي بوضع الجزء والصفحة قرين الأمثال الأخرى: حتى لا نثقل البحث بالهوامش، ينظر: الميداني، مجمع الأمثال، 2/ 202. وينظر: الترمذي، صحيح سنن الترمذي أخرج الترمذي في أبواب البر والصلة، باب ما جاء في صنائع المعروف، والحديث صحيح 2/186.
- (17) ينظر: الجاحظ، أبو عثمان بن بحر، الحيوان، دار الكتب العلمية، بيروت، 1424هـ، 1994م، 1/110.
- (18) سورة الأنبياء، الآية (37).
- (19) سورة الإسراء، الآية (11).
- (20) ينظر: المهدي، القاضي/حسين بن محمد، صيد الأفكار في الأدب والأخلاق والحكم والأمثال، وزارة الثقافة، صنعاء، ط 1، 2009م، راجعه العلامة عبد الحميد محمد المهدي، ص: 496.
- (21) دي بوجراند، النص والخطاب والإجراء، ص: 256.
- (22) الإعلامية إحدى معايير التحليل في المنهج النصي أو ما يعرف بمنهج (علم لغة النص) ينظر: أبو غزالة د. إلهام، علي خليل حمد، مدخل إلى علم لغة النص،، ومطبعة دار الكاتب، نابلس، ط 3، 1992-1431م، ص: 9.
- (23) ينظر: دي بوجراند، روبرت، النص والخطاب والإجراء، 249.
- (24) حسن، عبد الناصر، نظرية التوصيل وقراءة النص الأدبي، ص 66.
- (25) السَّلَى: ما تُلقِيه الناقَةُ إذا وضعت وهي جُلَيْدَةٌ رَقِيْقَةٌ يكون فيها الولد من المواشي وإن نزعَت عن وجه الفصيل ساعةً يولدُ وإلا قتلتَه وكذلك إذا انقطع السَّلَى في البطن فإذا خرج السَّلَى سلمت الناقَة وسلم الولد وإذا انقطع في بطنها هلكت وهلك الولد .
- (26) أسعد، يوسف ميخائيل، سيكلوجية الإبداع في الفن والأدب (د.ط) دار الشؤون الثقافية، بغداد، ص: 85.
- (27) البردوني، عبد الله، الثقافة والثورة في اليمن، ط4، دار الفكر دمشق، 1419/1998هـ، ص: 367.



الاشرف على